

كعب أخيل وصرخة جلامش وابتسامة الخائف

كورونا وصور الاستهلاك في برهة الهلاك والمعدن المغيب لإنسان الكوكب

نوري الجراح
شاعر سوري مقيم
في لندن

في أزمنة الحروب والكوارث والجوائح الكبرى، كما هو الحال بالنسبة إلى اللحظة الراهنة وقد عمت مخاطر الهلاك بكورونا انحاء الكوكب، ومع تزايد أعداد الناس اللانذنين ببيوتهم يلازمونها فلا يخرجون منها إلا في حالات طارئة، هنا، عند هذا الجرف الموهول، تحت سماء مدلهمة تنذر بأسوأ العواقب، يبدأ الاختبار الإنساني. تتساقط الإقنعة الاجتماعية عن الوجوه، ونبدأ في التعرف على معارفنا، كما لو أننا تلقى بهم للمرة الأولى. فنحن في لحظة المصير.

إنه الإنسان في لحظته الكونية. الكائن البشري في ساعة فاصلة من ساعات الحقيقة الداهمة.

هي لحظة كونية، بامتياز، غير مسبوق، اللهم إلا في السرديات الكبرى، الطوفان، وقد بات نوح يتيم حكايته، القيامة، ولكل يمين كتاب. هي برهة في المكان وخارجه معا، حيث تتلاقى المصائر وتبدو مشتركة، إنما لكل امرئ مصير لا شريك له فيه سوى روحه العزلاء.

هي لحظة للتأمل. وكذلك للمراجعة. تأمل وقائع عصية على التصديق، ومراجعة أفكار وتصورات عن قوة الجنس البشري، وقدره الجسد الإنساني على الدفاع عن نفسه في مواجهة عدو غير مرئي، وهي فرصة - مستقطعة من السياق - للتفكير في استجابات البشر وتصرفاتهم إزاء ما نزل بهم فجأة، وما هو يتحول إلى واقع كابوسي، شؤم لا بد من استقبال صورته المتلاحقة بوتائر شديدة السرعة.

صور مركبة للمواجهة بين هدف مكتشف هو الإنسان وعدو غير مرئي، هو المرض، حتى يمكن للبشر مواجهته بثقة واعتدال. هناك شيء غير عادل في هذه المعركة، بل شيء غادر.

يسهر العلماء في مختبراتهم بحثاً عن مصل يتيح للبشرية مواجهة عدو لا يرى إلا في المجهر، لكنه قادر على الفتك بالبشر وتقويض حضارتهم.

في الاختبار العظيم ينزع البشر الإقنعة الاجتماعية عن وجوههم فإذا بها وجوه مخطوفة الألوان، ابتسامات شاحبة تستطلع الرجاء في وجوهها نفسها تستطلع البشري وتريد أن تقرأ الأمنية في الوجوه.

وبقدر ما يصبح الأدمي أرضياً، في ساعة كهذه، بقدر ما يتحول هو نفسه، ويكل قوة الحقيقة فيه، إلى مجاز كوني، كناية عن حاضر يتأهب للغيب، ليكون من بعد حكاية عن وجود

أقصى الحياة في ذروة الموت

نحن روحان حللنا بدنا فإذا أبصرته أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا. فالأخر، هنا، مرآة الأنا إلى حد التطابق ووحدة الوجود والمصير بالتالي. وأشد ابن الفارض في بذل النفس لأجل الآخر: "ما لي سوى روحي، وبأزل نفسي، في حب من يهواه ليس بسرفاً".

وبقدر ما يصبح الأدمي أرضياً، في ساعة كهذه، بقدر ما يتحول هو نفسه، وبكل قوة الحقيقة فيه، إلى مجاز كوني، كناية عن حاضر يتأهب للغيب، ليكون من بعد حكاية عن وجود موجود لم يعد

ولئن كانت أبيات الحلاج وابن الفارض ترمي إشهار الصوفي لدرجات عشقه الإلهي، فإن اللغة نفسها تطوع الكلمات نفسها فتكسيها صبغة أرضية وتكسيها معنى يشمل الشعور العميق من آدمي إلى آدمي، واستعداد ذات لبذل أعلى ما لديها لأجل الآخر. ثمة درس بليغ يقدمه لنا حال البشرية اليوم مع الكورونا، وهو أن المحن إذا ما ضربت موضعاً من جسد العالم استدعت له باقي مواضع هذا الجسد، وأن العالم الذي تعولم لا يصير لجزء منه، شيئاً أو جيداً، بعيداً عن مصير كامل الجسد.

البشر وتوارخهم فكرة الفادي، لو لم يُفقد حبيب بحبيب وأخ باخ وأم بابنة وابن باب، وصديق يصدق. تحضرني هنا صرخة الشاعر في ملحمة جلامش ملك أوروك الذي طاف العالم القديم بحثاً عن عشبة الخلود لينقذ صديقه أنكيو، ولذاته الخائفة من الزوال: "حين أموت ألا يدخل البلى أحشائي؟ هل سأموت هكذا ميتة أنكيو".

والواقع أن هذه الصرخة لم تكن صرخة الذات الخائفة من انكشافها وضعفها الشخصي أمام حادثة الغناء، وحسب، وإنما هي تعبير عن خوف جلامش من هلاك الصاحب والحبيب. يهتف جلامش أمام جسد أنكيو المسجون:

لتندب المسالك التي سرت فيها في غابة الأرز
وعسن أن لا يبطل النواج عليك ليل نهار
وليندب شيوخ أوروك ذات الأسوار
وليندب الإصبع الذي أشار إلينا من ورائنا وباركنا
فيرجع صدى البكاء، في الأرياف
وليندب السدب والصبغ والنمر والإبل والسبع
والعجول والطيء
وكل حيوان البرية
ليندب نهر أولا الذي مشينا على ضفافه
وليندب الغرات الطاهر الذي كنا نسقي منه.
ولا يمعني هذا، بعد هذي المرثية
للذات والأخر، من أن أسوق بيتاً من الشعر صادماً، تأملت فيه ووجدته حقيقياً
في وجوديته، ثم تأملت فيه أكثر وتذكرت
أبياتاً أخرى تناقضه:
"كذب الصديق، لا صديق لميت
لو كان يصدق مات حين يموت".
لكن الحلاج الذي قدم جسده وروحه
على طبق الحب كتب معنى آخر:
"أنا من أموي ومن أموي أنا

الجنس البشري في رحلة وجوده العظيم على الأرض.

في أوقات المحن، لطالما فاجأ البشر أنفسهم في قدرتهم اللامحدودة على ابتداء الحيل ليتغلبوا على الشقاء، ويخلفوا لحظات الطرافة واللطف في ذروة أوقات الخوف من المجهول، ليجزموا، من ثم، بالابتسامة المقاتلة شبح الموت.

خلال المجاعات وحروب الإبادة قدم الأفراد للجماعة أقصى ما عندهم، وبذلوا التضحيات، ففعلوا الآخرين على أنفسهم، ومنهم كثرة واجهت الموت لتجنبه آخرين أفراداً وجماعات.

وكم من القصص العظيمة ولدت في ظلال الحروب وإبان الجوائح الكبرى. هل نحتاج إلى أمثلة، كل منا يتذكر ما سبق وقرأ من قصص ووقائع دونها الكتاب إبان الحروب، أو ابتكرتها مخيلاتهم عن حروب خاضها أبائهم وأجدانهم.

واليوم، بينما تأمل تدافع الناس طلباً للحاجيات في المتاجر الكبرى، فمة شيء آخر وراء هذا المشهد، فمة كنز دفين، في الصدور وفي النفوس، إنه المعدن الإنساني المغيب وراء صور الاستهلاك، القدرة الهائلة على العطاء، والقدرة على التضحية لأجل الآخر. في اللحظات الأشد والأخطر سوف يلمع هذا المعدن الإنساني الدفين في النفوس، ويقدم أصحابه أبهى ما عندهم.

في السجل الإنساني هناك وقائع مؤثرة لا حصر لها عن ذوات قدمت الآخر على نفسها، وإلا كيف استقرت في ذاكرة

حدود المعقول. الإمبراطوريات نهضت على جماجم من أطلق عليهم التاريخ صفة الأعداء مرة، فهم الآخر، والضحايا مرة أخرى هم الجموع الغفيرة وقد تحولت إلى حطب في رحلة بناء الدول والكيانات الكبرى والمهيمنة.

على أن فكرة تطويع العلم والعمل لأجل امتلاك القدرة الهائلة على الحياة والسيطرة في العالم، من قبل قوى عظمى، وتبقى هذه الفكرة عاجزة عن إصابة الكمال وتحقيق الديمومة، بل إنها ستبقى أبداً موضوعة لطلبه، فمة في كل بنية تنهض موضعاً تصاب منه، ومنه تصيب مقتلاً، وتسقط حالها حال أخيل في السردية الأسطورية للإغريق، فهو ابن ملك بشري من أم حورية. ولكي تضمن له أمه دخول حفل الخالدون الذين لا يهلكون كما يهلك سائر البشر، قامت بتغطيسه في نهر الخلود لكنها نسيت أن أصابعها التي أمسكت بالرضيع من كعبه عند الوتر تركت هناك في ذلك الموضع سر مصرعه. ولما اكتشف سر كعب أخيل ونقطة ضعفه، كان السهم الطروادي في انتظار ذلك الكعب.

الإمبراطوريات، بدورها، لطالما حملت في بنيتها ذلك السر. فتعاقت صعوداً وسقوطاً عبر التاريخ، وليس ثمة ما يمنع كأننا صغيراً لا يرى في العين المجردة من تقويض بنیاننا عظيم.

على أن الأفراد في ما فطروا عليه، عبر رحلة التجربة والاكتشاف والوعي، لم يكونوا وعياً عاقلاً وحسب، وإنما كانوا حاملين ومبتكرين وصناع لحظات عاطفية مدهشة. ولطالما عملوا مخيلاتهم المبدعة في أوقات المصاعب الكبرى، فابتكروا سبل التغلب على المحن، وقهروا المستحيل، لأجل أن يستمر

لموجود لم يعد، ولم يعد هناك من يمكن أن يروي الحكاية، ولا من يستمع إلى صوت.

في ظل الكوارث تنتشط المخيلات الدستوبية، وما نشهده اليوم في كوكب الأرض، سبق لمخيلات المبدعين أن صورت شيئاً منه في الروايات والأفلام. وعلى رغم تلك الصور القيامية المذهلة التي رأيناها في السينما وبلغنا معها نهايات العالم، فقد كنا ندرک أن الأمر لا يعدو أن يكون شطح خيال، وأن المشاعر القاسية لن تدوم طويلاً، وأنها ستغادر مقاعدنا في قاعة السينما ونعود إلى بيوتنا، فقد كنا في السينما.

ولكن هل سيقبض لنا وقد الجانسا الجواء مداد العصور، مهمة السيطرة على العالم. على مصادر الثروة والوقرة والمجد، ولأجل تحقيق هذا الهدف خاض البشر معارك شرسة ودامية وأظهروا قسوة وعنفاً جاوزاً، غالباً،

أוכל الإنسان إلى نفسه، على مدار العصور، مهمة السيطرة على العالم. على مصادر الثروة والوقرة والمجد، ولأجل تحقيق هذا الهدف خاض البشر معارك شرسة ودامية وأظهروا قسوة وعنفاً جاوزاً، غالباً،

هذا هو اسمك: شاعر لم تفز به نوبل

بالشعر والشعراء، وجعلني أحاور المثقفين الأوروبيين في مناسبات عديدة وبضمير المتكلم، من دون الاستعانة بكتيب التاريخ أو استخدام أفعال الماضي السحيق.

قالت العرب منذ امرؤ القيس "يبدأ الشعر بملك وينتهي بملك"، ودريش يسافر وحده ملكاً بمفهومه الشعبي والمخلمي، بنرجسيته وملحميته، بتواضعه وكبريائه، لأن الشعر لا يقوله إلا الأسياد حين ينكسرون أو يجرحون، وليس العبيد حين يسودون. الآن عرفت لماذا يري الشاعر نفسه منذ مالك بن الريب وأبي فراس الحمداني وحتى دريش. الآن عرفت لماذا تحوي خواتم الأباطرة السمة الزعاف، ذلك أن لا أحد يقوى على رثاء الشاعر غير الشاعر نفسه، ولا أحد يقوى على قتل الإمبراطور غير الإمبراطور نفسه.

أقر مرة أخرى أنني أغار من درويش منذ مراقتي. وهذه حالة صحية وليست مرضية. أقولها على الملأ وعلى طاولتي أي طبيب نفسي يدعي القدرة على فك عقدي. فمحمود درويش هو الذي يخطف من طرف لساني الكلمات المناسبة في الأوقات المناسبة ويقولها قبلي، وهو الذي يطع لي شاهداً أو منقذاً أو مسعفاً، في كل معرض حديث عن الشعر والحب والسياسة والنساء، وهو الذي محا الفارق اللغوي والحضاري بين المثقف والشاعر، وهو الذي أُنسن الأمكنة وتوأم بين المدن وحاورها وحاورته، فجعلنا نتكشف معه أن بيروت تفاحة، ودمشق قصيدة، أما تونس وفلسطين فعاشقان يقولان لبعضهما شكراً في لحظة نادرة. لكن الذي يغار من شخص بعينه يعترف ضمناً بفضل الأخير عليه، وأهم أفضل محمود علي أنه صحح علاقتي

متى نعلم أن الشاعر يعيش ويموت مثل كل الكائنات، ولكنّه يدفن وحيداً ومجزاً من كلامه. كلامه الذي يستبيحه الآخرون دون رافة بصاحبه، صاحبه الذي لا يعطى فرصة واحدة لتغيير أقواله. ما أصعب ورطة الشعر وما أقسى حب الناس للشعراء.

يبدو أن أطباء القلب، وليس المعدة، أكثر حدساً وفراسة في معرفة الشعراء منذ الشاب مغرباً، إلى درويش مشرقاً، فهذا هو اسمك أيها الشاعر قبل أن تغيب في الجدار اللولبي

أمه وينام على ظله العالي إلى أن اختنق ظله ومات. هل تطل التلة في رام الله على ما تريد الإطلال عليه، هل تحفظ طعمك القهوة المرة، هل تتذكر نكهة شفتيك الميرمية.

مهلاً، أقر وأعترف أن ما تقدم من سطور هو كلام باهت لشخص يحاول أن يغمس قلعه في حبر أسود للكتابة عن موت درويش كواجب وظيفي مقبت، كوقت نقضه في مجلس عزاء نكتم فيه ضحكاتنا المتربسة، نرتب على أكتاف أهل الفقد ثم نمضي في زحام المفاهي والأسواق.

متى ننتبه إلى أن الشاعر يرثي نفسه منذ أول قصيدة ثم يموت فيياتي الناس لرتاء شعره ويستمر الموت منتصراً وبأساط سلطته على الجميع - الخصوم منهم والموالون - كأول الأسئلة وأخرها.

حزين - فقط. لأجل نوبل التي تعض الآن أصابعها ندماً لأنها لم تفز به حياً.

يبدو أن أطباء القلب، وليس المعدة - أكثر حدساً وفراسة في معرفة الشعراء منذ الشاب مغرباً، إلى درويش مشرقاً، فهذا هو اسمك أيها الشاعر قبل أن تغيب في الجدار اللولبي، قبل أن تقع أسرى لما تريد وما نصب أن نكون، قبل ملهات النرجس ومأساة الفضة، قبل أن تدوس الخيول على العصافير الصغيرة. قبل ابتكار الياسمين، قبل أن يموت الهدد والتجاج مثبت على رأسه، وبعيدا عن أواني المون وموت الفراشات والشعراء في فصل الصيف.

محمود أجمل أسماء فلسطين الحسنى لأنه جعل منها همّاً شخصياً وراح يحرس أحلامها وكوابيسها ويسقي ورود شهدائها ويخجل من دمعة

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

غادر الرجل الذي قمعني ومعني من نشر الشعر على الملا طيلة سنوات عديدة، استكنني عن طيب خاطر، وجعلني لا اتقن إلا قراءته وأقول لنفسي: كذا يفعل الشعراء الكبار بامهمم وشعوبهم في برلمان التاريخ الذي لا ينبغي أن يتسع أعضاؤه إلى أكثر من أصابع اليد الواحدة، يكفي شاعر واحد لكل قارة، فما أتعب أمة يكثر فيها الشعراء ويقل فيها الشعر.

أنا حزين - فقط. لأنني لن أقرأ قصيدة جديدة لمحمود درويش بعد اليوم، حزين - فقط. لأن غيره سوف يرتدي بدلته ويحاول تقليد صوته،